: 2353 – 0030 ISSN
EISSN: 2602-697X

مجلة أبعاد

مجلد 11، العدد 01 (خ)، 2024

كونية فكرة التسامح الأنوارية وتجلياتها في الفكرالغربي المعاصر (ك. بوبر، ت. تودوروف)

The Universality Of Enlightenment Idea Of Tolerance And Its Manifestions In Contemporary Western Thought (K, Popper - T,Todorov)

بلخمقاني مباركة Belkhemgani Mebarka * فلسفة جامعة جيلالي الليابس سيدي بلعباس– (الجزائر)
مخبر الدراسات والأبحاث الفلسفية
merkabel42@gmail.com
رايس زواوي Rais Zouaoi فلسفة جامعة جيلالي الليابس سيدي بلعباس– (الجزائر)
مخبر الدراسات والأبحاث الفلسفية
rais1111@yahoo.fr
**********;

تاريخ الإرسال: 2022/06/30 | تاريخ القبول: 2024/03/20 | تاريخ النشر: 2024/08/04

ملخص:

مدار دراستنا، كونية فكرة التسامح في عصر التنوير، واستدعائها في الفكر الغربي المعاصر، والتساؤل عن جدواها كطرح فلسفي متجدد لمواجهة العنف الرَّاهن وخطابات الكراهية، من خلال التعرض لدلالات العنف، قبل الولوج إلى منشأ فكرة التسامح، وانسحابها إلى خطاب الأنوار . وبالبحث في الفكر المعاصر، ولدى المفكر"تازفيتان تودوروف"؛ نحاول استجلاء الوفاء للتنوير في نزعته الكونية والنقدية، وجدية السعي لاستعادة مبدأ التسامح الكوني.

ديمومة عطاء التنوير، وكونية أفكاره، إشكالية مركزية في فكر" تودوروف"، تفترض صيرورة للتسامح ضمن توليفة هذه الأفكار ليصبح مبدءاً كونيا، يقترن بالتعددية المفضية إلى الوحدة، وتستلهم روح الأنوار التي كشفت فضائل التعايش في ظل التنوع .

الكلمات المفتاحية: التسامح؛ التعايش؛ التعددية الثقافية؛ كونية الأنوار؛ الفكر المعاصر.

Abstract: Our study addressed the universality of the enlightenment idea of tolerance and its invocation in contemporary Western thought, and questioning its usefulness a renewed philosophical proposition to counter current violence, by touching on the connotations of violence before tackling the origin of the tolerance and its shift to the discourse of

* المؤلف المراسل: merkabel42@gmail.com

enlightenment. By investigating contemporary thought "Tzvetan Todorov", to clarify the extent of faithfulness to the universality of enlightenment and its critical.

The cosmic enlightenment ideas is a central problem in his thought, which assumes the process of tolerance within it to become a universal principle that is associated with pluralism.

Key words: tolerance ; coexistence; multiculturalism; universality of enlightenment; contemporary thought.

1. مقدمة:

تجذَّر العنف في كل العالم حتى غدا ملمحاً كونياً، شكلت تمظهراته المتعددة مادة الإعلام الأولى. وإذ تضخ وسائله مشاهد الحروب، والجرائم، والعمليات الإرهابية،..فهي توثق واقعا سمته الدمار واللاإنسانية، ووجهته اللاعقلانية وخنق الحرية. وفي محاولات تحليل هذا الواقع إعلامياً، يضيع الجزء الأكبر من الحقيقة في غياب الفكر الناقد.

حرّي إذا بالفكر المعاصر أخذ هذا الدور، غير أن إنشغاله بمحاكمة الحداثة والأنوار قد أربك مسعاه، وأوقعه في دائرة التعنيف والإقصاء، لكن عقلاً ناقداً يبحث عن حلول لواقع متأزم، لن يكون عليه إلغاء أو تجاوز إرث كبير بحجم الأنوار دون الحفر فيه، بعد أن بسط أوائل التنويريين رداء التسامح على واقع أوربا الدامي، مستلهمين تجارب الشعوب في التعدد والتعايش، في نزوع منهم إلى كونية التسامح تحت قيادة العقل.

من المعاصرين الذين اجتذبتهم فكرة التسامح الأنوارية في صبغتها الكونية، فيلسوف العقلانية النقدية"كارل بوبر"(popper,karl,raimund) (1994,1902) إلى جانب الناقد الحضاري" تازفيتان تودوروف (Tzvetan Tododov) (1939، 2017)" **ليطرح <u>الإشكال:</u>**

كيف تم استدعاء مبدأ التسامح الأنواري في الفكر المعاصر؟ وماجدوى استعادة كونية التسامح كطرح فلسفي متجدد في مواجهة العنف، مادام هذا الأخير يأخذ منحا متصاعدا في العصر الراهن ؟

لتفكيك هذا الإشكال، تم التساؤل حول:

1- ماهية العنف، وعن أي مفهوم للتسامح تبنته الفلسفة، أو قد تتبناه في خطابها لمواجهة العنف؟

2- تحت أي ظرف تم انتقال التسامح من مجرد فكرة إلى مبدأ ارتكاز في خطاب الأنوار إلى جانب العقل؟

3- كيف كان تلقي فكرة التسامح الأنوارية في الفكر المعاصر؟ وما هي مبررات العودة إلى كونية ارث التنوير من خلال مبدأ التسامح الكوني؟

إذا سلمنا أن "التسامح"من أهم المبادى الكونية التي نضجت خلال عصر التنوير، تجاوزت بها أوربا واقعها العنيف، ولا تزال إستعادتها ضرورية لحل أزمة العصر، لارتباطها الوثيق بالإنسان في علاقته بالآخر، يصبح من الضروري اتباع **منهج تاريخي**؛ بالعودة إلى نشأة فكرة التسامح، وإنسحابها إلى خطاب الأنوار. **ومنهج تحليلي نقدي**؛ قصد تحليل مختلف الأفكار، ومحاولة إستنطاق أهم نصوص المفكرين مماتعلق بالموضوع.

2. مفاهيم ودلالات العنف والتسامح:

وإن تعذر الحديث عن التسامح، فإن وجود العنف كواقع ملازم للإنسان إبتداءاً، وكثيفاً حد الدمار راهناً، وعصِّي على الإجتثاث حد القدر واقعاً، فلا مناص من خوض غمار خطاب التسامح تحدياً؛ لأجل ذلك كله كان لزاما محاولة تفكيك هذه المتلازمة إبتداءً بالداء بحثا عن الدواء، وتناول مفهوم العنف ودلالاته قبل الولوج إلى خطاب التسامح طرحاً وبديلاً من جانب الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة .

1.2. مفهوم العنف ودلالاته:

العنف يعني: الخَرْقُ بالأمر وقلة الرِّفْق به. (ابن المنظور، د ت، صفحة 257) والعنيف هو القوي الذي تشتد قوته بازدياد الموانع التي تعترض سبيله. وجملة القول أن العنف هو استخدام القوة استخداما غير مشروع أو غير مطابق للقانون. (صليبا، 1982، صفحة 112) وعليه ف" العنف" في معناه اللغوي أو االفلسفي يفيد معنى القسوة والشدة، واستعمال القوة بغير حق. غير أن التسويغ لإستخدام هذه القوة وتأييدها بسلطة القانون، يقودنا إلى التساؤل عن مبدأ المشروعية ذاته الذي قد يتخذ مطية لممارستها.

والقوة ليست عنفا بالفعل وإنما هي عنف بالقوة، أو عنف كامن يتوقف على استخدامها بشكل يجعلها فعلاً مثقلاً بالشدة والقسوة (الغرباوي، 2009، صفحة 06). وانتقالها من مستوى الإمتلاك أي الوجود بالقوة إلى مستوى الممارسة أي الوجود بالفعل، هو ما يحولها إلى عنف مشروع في حالة الدفاع، وغير مشروع في حالة العدوان السافر.

والحرب أقوى إختباراً وتجسيداً للقوة؛ وتشير "حنة أرندت" إلى أن مفهوم الحرب قد تطور، بعد الحرب العالمية الأولى، تلك الحرب التي أظهرت القدرة التدميرية الشنيعة في ظل ظروف التقنية (أرندت، 2008، صفحة 16) والواقع أن الحروب المعاصرة، والتي تشن

بإسم حقوق الإنسان وحماية الأقليات، في الغالب تنتهي بإنتهاك صارخ للحريات وللحقوق المدنية، ما يبعدها تماما عن احترام إنسانية الآخر، وحتى عن أدبيات الحرب، ويربطها بذرائع واهية، ترتهن لإيديولوجيات متعصبة.

وقد عُدّ"**الإرهاب**"Terrorism الصورة الأكثر تطرفاً للتعصب الذي استحال إلى عنف. ويعرَّف بأنه" ممارسة الأعمال العنيفة ضد مصالح الغير سواء أكانت فردية أو جماعية، أو التطرف يميناً أو يساراً عن مبدأ أساسي في حياة البشر" (عبد الكافي، 2005، صفحة 29). ومجمل أثر الإرهاب، وفحواه، العمل على قولبة الناس في عقيدة واحدة، ورأي واحد، في محاولة لقتل كل ما من شأنه اعتماد الاختلاف والتغاير، بوصفهما طبيعة إنسانية. فلا تعد الأعمال في حد ذاتها هي السمة المميزة للإرهاب، وإنَّما الغرض السياسي من ورائها. وحين يطال الإرهاب الفكر يغدو إرهابا فكريا يشير إلى فرض الأفكار بالقوة واستعمال التخويف والترهيب (المحمداوي، 2016، الصفحات 33-34)، وهذا ما توسلته بعض الدول الغربية عند استحالة فرض منطقها العولمي، وفشل مبرراتها في السيطرة باسم الفتح الحضاري والعلمي، بعد اصطدامها بتصلب الهويات الثقافية للشعوب الأخرى، الرافضة لأي اختراق. فالعولمة على هذا النحو؛ قد تأسست على فكر عنصري أفرز عنفاً إرهابياً.

2.2. مفهوم التسامـــح (TOLERANCE):

السَّماحُ والسماحةُ: الجود. والإسْماحُ لغة في السَّماحِ، يقال سَمَحَ وأسْمَحَ إذا جاد وأعطى عن كرمٍ وسخاءٍ. وأسْمَح فإنما يقال في المتابعة والإنقياد. (ابن المنظور، د ت، صفحة 489).

والتسامح في موسوعة لالاند: طريقة تصرف شخص يتحمل بلا إعراض أذى مألوفا يمس حقوقه الدقيقة بينما بإمكانه رد الأذية. (لالاند، 2001، صفحة 1460) ويعرفه قاموس ويبستر بأنه:" احترام أراء ومعتقدات وسلوك الآخرين والإعتراف بها". (مفتي، 2010م/1431هـ، صفحة 09)

وعليه: فالتسامح في كل معانيه يجسده سلوك الشخص تجاه الآخر، وتفهم إختلافه، ومحاولة إستيعابه، بما تحمله هذه السلوكات من نوايا الإستقرار والتعايش في ظل التعدد والتنوع. فالتسامح"ميزة إنسانية وقيمة أخلاقية يمكن إكتسابها وإكسابها من خلال التربية الخلقية الوجدانية النابعة من أبسط مواقف الحياة إلى أكثرها تعقيدا". ومهما تعددت دلالاته، فإنه محكوم بالضرورة الوجودية للتعايش، وتفترضه القيم الأخلاقية والإجتماعية

والنظم الدولية أيضا. ويفترض التعايش عدم التدخل في شؤون الدول، وأن تعمل جميع الدول على التعاون الدولي وتسهم في إبعاد شبح الحرب عن العالم، وهذا التعايش السلمي ضد مبادئ العولمة والقرية الكونية الصغيرة التي لا ينفصل فيها الداخل عن الخارج. (عبد الكافي، 2005، صفحة 127). وقد اقترن التسامح بمعاني التعايش في أدبيات عصر التنوير، ولا يزال هذا التزاوج حاضراً في خطاب الفكر المعاصر، الذي يحاول استعادة قيم التنوير الكونية.)

3. كونية خطاب التسامح في الفكر الأنواري:

قصد استجلاء الغموض، ومحاولة ترصد كونية التسامح الأنواري، وبعد الحفر قليلا في نشأة المفهوم، كانت العودة إلى أهم نصين في التسامح ظهرا في عصر التنوير

1.3 نشأة مفهوم التسامح:

نشأ التسامح بوصفه فكرة على أنقاض الحروب الدينية في أوربا، ثم تحول فيما بعد إلى مبدأ له مرتكزات أساسية يقوم عليها. فقد عاشت أوربا عهوداً من الإضطهاد الديني كان من أبرز معالمها "محاكم التفتيش". (مفتي، 2010م/1431هـ، صفحة 15) في رصده لأولى إستخدامات مفهوم"التسامح"، ويذهب المؤرخ "جوزيف لوكلير"- إلى أن "فعل التسامح" كان متداولا من زمن، وقد كرَّس القديس"توما الإكويني مقالة كاملة لمعالجة المسألة"هل نتسامح مع غير المؤمنين؟" إلا أن لفظة " التسامح" ظهرت متأخرة ومحافظة على معنى القبول والتحمل السلبي، لكن تحولا ما طرأ في ألمانيا والبلاد الواطئة على مدلولها، فأصبحت تعني السماح أو التسامح المتصل بالحرية الدينية، ولم يلبث أن شمل فرنسا، حيث وردت عبارة "تسامح الإصلاحيين" وقبل ذلك في الدفوع المعاصرة "لقرار نانت عام 1598م. (لوكلير، 2009، الصفحات 23-24) الذي قام لويس الرابع عشر بإلغائه عام 1685م، حيث ظهر عهد جديد من التعصب والإضطهاد ضد البروتستنتيين الفرنسيين (مفتي، 2010م/1431هـ، صفحة 17).

وعليه فالمتتبع لتاريخ ظهور التسامح سواء كفكرة، أو كسلوك فعلي كثيرا ما تخلل الواقع، أو كمفهوم بدلالة لفظية تداولتها الكتابات الحديثة، يلحظ لا محالة إرتباطه بالعنف والتعصب المصاحبين للحروب الدينية، وتقييد الحرية والتنكر للعقل الناقد للدين؛ وعلاقته بالتشريع السياسي والديني للعنف كما التسامح. ما يعني أنَّه برز كطرح بديل عن واقع دموي. وعليه فالتسامح في جوهره "دعوة وتجسيد للخطاب العقلاني؛ المندد

بالعنف، والمناهض لأشكال الإضطهاد والعنصرية والتعصب، والمنادي بالسلم والحرية والتعدد، وإحترام الآخر الإنسان."

2.3. كونية التسامح عند فولتيروالإستبدادية المستنيرة:

في كل العصور، يهدد الفكر السلطة حينما يكتسب قوة التأثير التي يمتلكها قادته، وقد غدا" فولتير" voltaire(1694-1778) قوة هائلة تهز أركان سلطان القرن الثامن عشر، ويصبح ملحدا ثائرا في نظر السلطات، ورسولا للتسامح والإصلاح فيما بعد، فقد كان متنورا جعل كل فرد شاعرا بإستقلاله العقلي" (غروتويزن، د ت، صفحة 92). وقد ظهرت العديد من المؤلفات التنويرية الممجدة للعقل، والناقدة للمجتمع اللاعقلاني (توشار، 2010، صفحة 477) والرافضة للعنف، حتى أن"فولتير"صرح في إحدى كتاباته:"لا أريد أن أكتب تاريخا عن الحروب، ولكن عن المجتمعاتْ" (ديورانت، 1982، صفحة 276)، ما عرضه للنفي. فالعنف إذا؛ ومنذ البدايات كان وسيلة الساسة والمتعصبون من رجال الدين لإخماد نور العقل وصوت الحق، وكتاباته التنويرية، قد عبرت عن ثورة على الواقع، ونفور من الحروب، بإتجاه السلم والتسامح، بحثاً عن مزيد من الحرية للفكر والسياسة معاً، وهجراً لتقاليد الكتابة، بل إزاحةً للثام عن حقائق طالما أغفلها التأريخ البعيد عن الواقعية والنقد قبله، وهو المؤمن بأن التاريخ يكتبه الفلاسفة.

لقد استعان" فولتير"بدروس هذا التاريخ وبتجارب الأمم في التسامح والتعايش، فكانت"رسالته في التسامح" تنضح بالأمثلة الواقعية للشعوب والحكام والأباطرة والأديان التي نمت جنبا إلى جنب في ظل التسامح والحرية والعقل. فكانت رسالته إنسانية شاملة، بقدر جرأتها-تتواضع في دعوتها للتصالح مع الذات ومحاورتها- في خطابها نحو كل مستنير يمكنه تقبل التسامح. فنجده يقول:<< إني لأجرؤ على الإفتراض بأن وزيراً مستنيراً وشهماً، أو أسقفاً إنسانياً وحكيماً، أو عاهلاً يدرك أن مصلحته تكمن في تعاظم عدد رعاياه، ومجده في سعادتهم، وقد يتفضل بإلقاء نظرة على هذا النص المشوش والمشوب بالنواقص، فيضيف إليه من أفكاره النيرة ويحاور نفسه قائلاً: ماذا يضيرني لو رأيت الأرض تُزرع وتُزين بعدد أكبر من الأيدي الكادحة، والقبائل تتكاثر وتتضاعف، والدولة تعمر وتزهر؟>> (فولتير، 2009، صفحة 41).

والملاحظ أن فكرة الملكية المستنيرة قد تمتعت برواج في فرنسا في بداية القرن الثامن عشر (فولغين، 2011، صفحة 20) ولعل هذا الإتجاه نحو الإستنارة هو ما خلق نوعا من

النزعة السلمية في هذا القرن، مثلما عبرت عنه الإستبدادية المستنيرة عند كل من: فريدريك الثاني(1712-1786)، الذي أبدى احتراما كبيرا للأخلاق في كتابه"ضد ماكيافيلي"، الذي عُدَّ ممجدا للفضائل السلمية، وجوزيف الثاني(1741-1790) الذي إنخرط في مشروع توحيد، وحاول أن يحقق برنامجا كاملا من الإصلاحات مثل: حرية الصحافة، والتسامح بالنسبة لجميع الطوائف. (توشار، 2010، الصفحات 561-562)

ومهما يكن من أمر، فإن السلطة السياسية كانت أكثر استجابةً لدعاوى التسامح والإصلاح، على عكس السلطة الدينية التي كانت أكثر تعصباً وانغلاقاً في وجه الخطاب العقلاني للتنوير ؛ فقد واجهت دعواتهم بالعنف وعدم التسامح مع أسمتهم بالهراطقة، ذلك أن العنف المسعور الذي يدفع إليه العقل اللاهوتي المغلق، والغلوَّ في الدين المسيحي المساء فهمه، قد تسبب في سفك الدماء في ألمانيا وغيرها، ولكن على العكس في فرنسا، فإن تباين الأديان ما عاد اليوم يحدث اضطرابات في تلك الأقطار. فاليهودي، والكاثوليكي، والأرثوذكسي، واللوثري، والكالفني،وسواهم، غدوا يعيشون بتآخ في تلك الأقطار. (فولتير، 2009، صفحة 31) فالتسامح الديني نتاج العقل الحر المتنور الذي يسمح لنفسه بمناقشة النص الديني، وينفتح على الفهم الصحيح له. ويتجه نحو تقبل االمعتقدات المخالفة وتحقيق التعايش.

لا غرو أن إيمان" فولتير" في جدوى خطاب التسامح الفلسفي، دعاه إلى القول أن:<<الفلسفة وحدها- شقيقة الدين تلك- كانت كافية لنزع السلاح من أيد طالما تلطخت بالدماء بفعل المعتقدات الباطلة؛ والعقل البشري، إذ صحا من غيبوبته، أخذه الذهول إزاء ضروب القسوة وأشكال العنف التي دفعه التعصب إليها.>> (فولتير، 2009، صفحة 33) فرسول التسامح في شخص" فولتير" يدرك جيداً، أنه لا مناص من تبني الفكر الفلسفي الحر والمنفتح على الدين سبيلا إلى التسامح ودرء العنف.

3.3. التسامح والمشروع الليبرالي عند جون لوك:

حملت رسالة"جون لوك"(locke,John)(1632,1704)" أفكاره حول التسامح الديني بين الأطياف المسيحية المختلفة العقائد والملل، مفتتحا خطابه بنظرته إلى التسامح على أنه:<< العلامة المميزة للكنيسة الحقة>> (لوك، 1997، صفحة 19) وبذلك حمل الكنيسة وزر التعصب واللاتسامح والعنف، كونها قد فرضت الوصاية على الدين الذي يقتضي الحرية والمشاركة والحب، بوصفه حق وواجب كل فرد يدين به، ولم يكن يوما لأجل التباهي

والإحتكار والتسلط باسمه، موضحا وظيفة الدين الحقة. فالدين << لا يتأسس من أجل ممارسة الطقوس ولا من أجل الحصول على سلطة كسلطة كنسية، ولا من أجل ممارسة القهر، ولكن من أجل تنظيم حياة البشر استنادا إلى قواعد الفضيلة والتقوى.>> . في عرف"لوك" التسامح من صلب الدين المسيحي، وأمر جوهري يقتضيه الدين والعقل معا؛ ذلك أن"<<التسامح بين أولئك الذين يعتقدون عقائد مختلفة في أمور الدين يتسق تماما مع العهد الجديد الذي أتى به السيد المسيح، كما يتمشى مع مقتضيات العقل الإنساني الحق.>> (لوك، 1997، صفحة 23).

يدعو"لوك"إلى ضرورة الفصل بين الدين والدولة في خطابه للتسامح متدرجاً من مناداته بالحرية الدينية إلى التنديد بالحرية السياسية. وإذ يحاول التمييز بين وظيفة الدين، ووظيفة الحكم المدني، فهو بالدرجة الأولى يؤسس للحدود الفاصلة بينهما، من خلال قوله << ينبغي التمييز بدقة ووضوح بين مهام الحكم المدني وبين الدين، وتأسيس الحدود الفاصلة والعادلة بينهما.>> (لوك، 1997، صفحة 23) فالفصل بين الأمور الدينية والدنيوية، يضع حدا لسلطة الكنيسة، التي ما فتئت تسلب الإنسان كل حقوقه وتسيطر على عالميه الدنيوي والأخروي بدعوى الدين. ويحدد واجبات الدولة المدنية، وحقوق الأفراد كأعضاء في المجتمع المدني، وبهذا الفصل قد تأسس المنحى الليبرالي للوك على قاعدة التسامح الذي يجلب مزيدا من الحرية والإنفتاح والعلمانية.

وانطلاقاً من كتابات"لوك" بدأ الربط المباشر بين تحقيق التسامح في المجتمع، وفصل الديني عن السياسي، بالمطالبة بإرساء دعائم مجتمع "مدني" سياسي منفصل عن السلطة الدينية، والذي أصبح مطلباً أساسياً لدعاة التسامح من الليبراليين العلمانيين. (مفتي، 2010م/1431هـ، صفحة 19) وبهذا قد دعمت دعاوى التسامح التوجه الليبرالي نحو مزيد من الحرية الفردية حيث شكل الأرضية التي قامت عليها الليبرالية المعاصرة، التي تجدد خطابات الحرية والديمقراطية والتعددية بدعوى التسامح والتعايش والتقدم نحو العولمة الشاملة بمسحة إنسانية، وواقع أبعد ما يكون عنها.

ليس ثمة شك بعد هذا، أن فكر الأنوار كان سباقا في رفض العنف والتعصب، بإظهاره العداء الشديد لتحجر العقل اللاهوتي الذي احتكر السلطة الروحية، على غرار احتكار الساسة السلطة الزمنية؛ حيث عملا معاً على تغييب الإنسان وكبح حريته. لذلك جاء خطابه العقلاني متسقا مع مبادئه الإنسانية، إذ مجد الإنسان عقلاً، وضميراً، وترافقت

دعوته للتسامح مع محاولته استيعاب كم العنف الناجم عن التعصب والجهل. عصر الأنوار هو عصر العقل بامتياز؛ خلاله استطاع العقل إدراك الواقع المعاش، وتنبه لحجم الإختلاف والتعدد الذي ميز أوربا، وباقي العالم من حولها. فنادى بضرورة التعايش بين مختلف الطوائف من منطلقات إنسانية وكونية تنزع إلى السلم والتقدم في مسعاها التنويري، فكان عقلاً نقدياً وإنسانياً بالدرجة الأولى.

4. تجليات خطاب التسامح في الفكر الغربي المعاصر:

رامت الفلسفة التسلح بالسلم فطرحت خطاب التسامح بديلا للعنف. ومثلما خاطب العقل الحداثي الأنواري واقعه الدامي المليء بالصراعات السياسية والحروب الدينية، فإن الفكر الغربي المعاصر، واستجابة منه لراهن أكثر تأزماً وتعقيداً، يجدد عهده بهذا الخطاب، ويجتهد في دعوته للتسامح والإنفتاح. ويبدو جلي كم الوفاء للتنوير في نزعته الكونية والنقدية لدى بعض المعاصرين، فقد ارتبط خطاب التسامح لدى "كارل بوبر" بالمسؤولية الفكرية والأخلاقية المقترنة بالتعلم من الخطأ؛ باقتفاء أثر"فولتير"، ولدى" تزفيتان تودوروف" اقترن بالتعددية المفضية إلى الوحدة؛ مستلهما روح التنوير .

1.4 التسامح والمسؤلية الفكرية عند كارل بوبر:

يعود الفكر لينقد ذاته، ومعول النقد حين يمسكه فيلسوف العقلانية النقدية" كارل بوبر" يفكك به الحقيقة العلمية مثلما القيم، يسْتفهِمُ ويُفْهِمُ ويبني قيَّما ومبادئ تتأسس بها المفاهيم. لقد جاءت محاضرته التي ألقاها بجامعة بوبنجن بعنوان"التسامح والمسؤولية الفكرية"، بحمولتها النقدية تنضح بالإنسانية والإحساس بالمسؤولية التاريخية المنوطة بالفكر في اتجاه حل أزمات الواقع؛ هذا الفكر الذي يتنصل من واجباته المجتمعية، في الوقت الذي ساهم بقدر كبير في تحطيم أطره.

وقد عبّر"بوبر" في هذا الخطاب عن تصوره لمفهوم "التسامح"، وأنشأ تلك العلاقة بينه وبين المسؤولية الفكرية تجاه ما يحدث من عنف وتعصب في العالم المعاصر، وتساءل عن ماذا يمكننا القيام به لمنع وقوع تلك الحوادث البشعة؟ محملا المسؤلية الفكرية لذاته، ولغيره من المثقفين، ومعترفا بقوله:<< نحن المثقفين، قد تسببنا في أفضع الأضرار، منذ آلاف السنين في القتل الجماعي باسم فكرة، عقيدة، نظرية، دين، كل هذا من ابتكارنا، من ابتكارنا نحن المثقفين. سنكسب الكثير لو أنا تمكنا فقط من وضع حد لوقوف إنسان في مواجهة آخر.>> (بوبر، 1999، صفحة 130)

لطالما آمن "بوبر" بالمعرفة الحدسية، وبنسبية الحقيقة، وبوجود الخطأ في المعرفة، وبضرورة الإعتراف به، والعودة إلى نقد الذات. ومن منطلق أخلاقي الآن؛ يزاوج بين التسامح والخطأ، والحقيقة النسبية والوثوقية. ويجدد عهده بسقراط ومن هم على شاكلته ممن تواضعوا للمعرفة بحثا عن الحقيقة. فيمنهج التسامح، يقتفي آثر"فولتير" في الدفاع عنه، ويتبنى موقفه؛ حين يربط بين التسامح وملازمة الخطأ للبشر،إذ يرى أن:<<التسامح: هوالنتيجة الحتمية لإدراكنا أنَّا لسنا معصومين من الخطأ، البشر خطاؤون. نحن نخطيء طوال الوقت. دعونا إذن نغفر لبعضنا الحماقات. هذا هو المبدأ الأول الطبيعي>> (بوبر، 1999، الصفحات 231-232). ويستحضر "بوبر" التبصر السقراطي" إنني أعرف أنني لا أعرف شيئا، وحتى لا أكاد أعرفه " ليستلهم منه تلك النتائج الأخلاقية التي يدافع بها عن فكرة التسامح؛ وهي المبادئ ذاتها التي تشكل الأساس لكل جدل عقلي-في نظره- في بحثه عن الحقيقة، وهي ثلاث: مبدأ اللاعصمة، ومبدأ الجدل العقلي، ومبدأ الإقتراب من الحقيقة.

ويلفت النظر إلى<<أن هذه المبادئ الثلاثة مبادئ ابستيمولوجية، وأخلاقية أيضا: لأنها تعني من بين ما تعني" التسامح" إذا أملت في أن أتعلم منك، وإذا أردت أن أتعلم لوجه الحقيقة، فعلي أن أتحملك، وعليَّ أيضا أن أعتبرك نداً لي محتملا[..]ثمة مبدأ نؤكده هو أننا قد نتعلم من النقاش، حتى إذا لم يؤد إلى إتفاق: فالمناقشة قد تساعدنا في إلقاء الضوء على بعض أخطائنا.>> (بوبر، 1999، الصفحات 242-243)

لقد كان بوبر وفيا لفلسفته النقدية، ولنظرته النسبية، وبتوظيفه الأخلاقي لتصوره هذا في دعوته للتسامح يؤكد أن إنبناءه لا يكون إلا بالنقد الذاتي، وتقبل النقد من الآخر، والحوار والنقاش المفضي إلى كشف الأخطاء على سبيل التعلم لا التجريح. وإذ ينتقد بوبر الأخلاقيات المهنية قديمها وجديدها؛ كونها ترتكز بلا جدال على مفاهيم الحقيقة والعقلانية والمسؤولية. لكن الأخلاقيات القديمة كانت ترتكز على فكرة المعرفة الشخصية وعلى المعرفة اليقينية، ومن ثم فكرة السلطة. (بوبر، 1999، الصفحات 243-244) وعلى هذا الأساس، يرى أن المسؤلية الفكرية تجاه الحاضر من قبل العلماء تقتضي وجود مبادىء مهنية جديدة. فالحاجة إلى إيجاد أخلاقيات جديدة مبنية على المعرفة الحدسية والحقيقة النسبية والإعتراف بالخطأ للتعلم، دفعته في آخر خطابه إلى إقتراح وتجميع إثنا عشرة(12) مبدأ -قد لا يسع المقام لذكرها- يمكن التقيد بها كأساس يكفل أخلقة العلم وتواضعه في مواجهة التعصب واللاتسامح. وتتحقق معها كونية التسامح كمبدأ.

2.4 التسامح، التعددية الثقافية، والتعايش عند تزفيتان تودوروف:

التعددية: مفهوم ليبرالي ينظر إلى المجتمع على أنه متكون من روابط سياسية وغير سياسية متعددة ذات معنى مصالح مشتركة (الكيالي، 1990، صفحة 768) وقد تم الربط بين التسامح والتعددية والديمقراطية في وثيقة إعلان مبادئ التسامح الصادرة عن اليونسكو في 16 نوفمبر1995، والتي تبدو في غاية الإنسجام مع ما يقترن بالتسامح من مفاهيم كالإحترام، وقبول التنوع، والإعتراف بحق الآخر والتعدد..غير أن هذا الإعتراف الدولي جاء متأخرا بالنظر إلى خطاب ومبدأ ظهر منذ التنوير، ومع ذلك ساهم في إبراز كونيته، وصلابته، وفعاليته، ما يجعل عملية إستدعائه راهنا أمرا ملحا لمواجهة العنف. والتعددية إحدى مرتكزات خطاب التسامح الذي يطمح الفكر الغربي المعاصر لإستعادته، بعد أن أدرك أهميته بإدراكه لحجم التنوع والإختلاف والحاجة إلى الحفاظ على أدنى حد للتعايش، يمكن معه العبور بأمان نحو سلم دائم مثلما أراد له كانط وجموع المتنورين في آمالهم الكونية.

1.2.4. التعددية الثقافية عند تازفتان تودوروف:

غير بعيد عن مساعي كانط الأخلاقية، وطموحات فولتير، ولوك، وغيرهم من إنساني التنوير في جدوى خطاب التسامح الكوني، وإلى جانب معاصره الليبرالي الإنسانوي"كارل بوبر"، يقف" تازفتان تودوروف" مدافعاً عن إرث التنوير، وداعيا للتسامح في وجه أطروحات من قبيل أطروحة" هنتنغتون" التي ترى أن الغرب الديمقراطي في حرب ضد إيديولوجيا شمولية تعتزم اللجوء إلى الإرهاب على مستوى غير مسبوق للقضاء عيه، وتصف مؤيدو المواقف الأكثر تسامحاً ب"متعددو الثقافات" وتجري مماثلتهم بالعملاء والخونة. (تودوروف، ما وراء صدام الحضارات، 2009، صفحة 103)

وفي خضم بحثه موضوع"تعدد الثقافات"، يميز "تودوروف" ثلاث سمات للثقافة؛ الأولى: أن لكل فرد هوية ثقافية مفروضة عليه منذ مجيئه إلى العالم، والثانية: وهي تعدد الهويات الثقافية لدى الفرد الواحد، والتي يفرضها إنتماءه الجغرافي المحلي والإقليمي. والثالثة: أن الثقافة تبقى قابلة للتحول والتغير. (تودوروف، تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية، الصفحات 74-76)

والملاحظ أن هناك انتقال من الخاص إلى العام، ثم إلى الأعم أي إلى الهوية الكونية أين يحدث الإحتكاك الفعلي بالثقافات المغايرة. للإشارة فإنما يصطلح على تسميته ب"الهوية

الكونية" تذهب عكس العولمة، فهي تميل إلى فكرة التعددية ضمن الواحد، أو الواحد المتعدد (قوعيش، 2014، صفحة 103) وتتميز الهوية الثقافية عن الإنتماء المدني أو الوطني من جهة، والإلتزام بالقيم الأخلاقية والسياسية من جهة أخرى، فالدولة ليست ثقافة، لذلك ففي نظر تودوروف مبدأ التعايش السلمي بين المجتمعات ذات الأصول المتعددة وتعيش في الوطن نفسه، يقوم على امتلاكها قاعدة ثقافية مشتركة ومجموعة من المعارف حول الأنظمة المعمول بها في هذا المجتمع. (تودوروف، تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية، الصفحات 83-84)رصيد تودروف الأنثروبولوجي والألسني، بالإضافة إلى تجارب التعدد التي عاشها في المجتمع الفرنسي، أسهمت في تبلور رؤياه وقناعته بضرورة التعايش في ظل التعددية الثقافية.

2.2.4. كونية الأنواروتجربة التسامح والتعايش عند تودوروف:

تعرض مشروع الأنوار منذ بداياته لمحاولات الإجهاض من طرف الكنيسة والحكام، ولايزال الرفض والتحريف يطالانه حتى الآن، في الوقت الذي ينبري فيه"تازفيتان تودوروف"مدافعا عن مكتسباته خاصة في جوانبها الإنسانية، ففي نظره الأنوار تنتمي إلى الكونية، وأي تحويل لوجهتها فيه نوع من اختلال التوازن بين الكوني والمحلي، بين السعي إلى التوحيد والتسامح لأن الأنوار تقتضي الأمرين معا. (تودوروف، روح الأنوار، 2007، صفحة 139) ويربط التسامح بالإختلاف والتنوع والتعدد، في إشارة واضحة منه إلى ما يزخر به إرث التنوير من قيم صالحة لكل عصر، مدام الأمر يتعلق بالقيمة الإنسانية ذاتها. أوربا واحدة ومتعددة في نفس الوقت، وسبق لرجال الأنوار أن انتبهوا جيداً إلى هذا الأمر، فقد كانت القوى الأوربية تشكل فيما بينها نوعا من النظام. وكان الأوربيون في ذات الوقت متفاعلين بنفس القدر مع الإختلافات التي تفصل بين سائر البلدان (تودوروف، روح الأنوار، 2007، صفحة 150)

يبدي "تودوروف"حماسه الكبير لتجربة التعايش في أوربا، إذ يرى أن التعددية في حد ذاتها مصدر منافع لا تحصى، فرواد التنوير اكتشفوا مكمن فوائد التنوع، وتعدد الأديان، وخلال ذلك يستعرض سعادة"فولتير"عند مقارنته بين الأمم الأوربية، وابتهاجه خلال إقامته في "لاهاي" بما يسود فيها من تسامح حيث كانت جميع الأديان المتعايشة تبدو مقبولة دون أن تسعى أية واحدة منها إلى إزاحة الأخرى. (تودوروف، روح الأنوار، 2007، الصفحات 152-153). وهي البهجة ذاتها التي تشعر أنها انتقلت إليه حين تتصفح

كتابه"روح الأنوار"، وكأن نورا بالفعل شق طريقه إليه، حين يدعو لاستلهام الروح المليئة بالقيم الكونية الإنسانية، عن همّ عصره،

وفي موضع آخر من كتابه" الخوف من البرابرة" يذكر بمكاسب التنوير. مؤكداً أن صيغة الحد الأدنى لأشكال التعايش تتمثل بالتسامح، في أن نتشاطر الآخرين الرأي والموقف، إننا لا نأخذ عنهم شيئا، إنما نكتفي فقط بعدم إضطهادهم. إن التسامح يمثل مكسبا أساسيا، ومحصلة للنضالات التي قامت في القرنين السابع عشر والثامن عشر من أجل التسامح الديني، والتي تقضي بالفعل بألا تحل الخلافات بين المجموعات عن طريق اللجوء إلى القوة، وإنما التفاوض والإقناع. (تودوروف، ما وراء صدام الحضارات، 2009، صفحة 183)

على هذا الأساس يتبنى "تودوروف" مشروعًا إنسيًا جديدًا للتعايش ينبنى على التسامح والتعدد مستلهما روح الأنوار الكونية، ودرس الأنوار لديه يتمثل في القول:<<إن التعددية يمكن أن تفضي إلى وحدة جديدة، وذلك بثلاث طرق على الأقل: فهي تحث على التسامح ضمن المنافسة، وهي تنمي وتحمي الفكر النقدي الحر، وهي تساعد على التجرد عن الذات بما يؤدي في مستوى أرقى إلى اندماجها مع الآخر.>> (تودوروف، روح الأنوار، 2007، صفحة 161).

5. النتائج ومناقشتها:

1. التسامح في كل معانيه يتجسد في سلوكات الشخص تجاه الآخر، وتفهم إختلافه،ومحاوله إستيعابه، بما تحمله هذه السلوكات من نوايا الإستقرار والتعايش في ظل التعدد والتنوع، وعليه: فالتسامح مفهوم ومبدأ كوني، وميزة إنسانية، وقيمة أخلاقية يمكن إكتسابها واكّسابها من خلال التربية الخلقية الوجدانية النابعة من أبسط مواقف الحياة إلى أشدها تعقيدا.
2. التسامح في جوهره"دعوة وتجسيد للخطاب العقلاني؛ المندد بالعنف، والمناهض للإضطهاد والعنصرية والتعصب، والمنادي بالسلم والحرية والتعدد، وإحترام الآخر الإنسان، وهذا ما يجعل منه خطاب كوني".
3. أن فكر الأنوار بارتكازه على العقل الناقد، كان سباقا في رفض العنف والتعصب، بإظهاره العداء الشديد لتحجر العقل اللاهوتي المحتكر للسلطة الروحية، مثلما احتكر

الحكام السلطة الزمنية؛ لذلك نضج خلاله التسامح من مجرد أفكار في خطابات الإصلاح إلى مبدأ بصبغة كونية.

4. خطاب التسامح الأنواري، استهدف الكنيسة والحكام. أما في عصرنا، وبتراجع السلطة الدينية، فالأنظمة السياسية أصبحت أكبر فاعل، ومثلما تصنع العنف، وتشرعن للقوة والحروب، منوطة ببسط السلم والتسامح، وتفعيل القوانين التي تجرم العنف، وتضمن العدالة في ظل التنوع والتعدد. لهذا يبقى حل أزمة العنف رهن صلاح الأنظمة، واستنارة الحكم، مثلما أراد له فولتير، واجتذب اهتمام الناقد" تازفيتان تودوروف" المدافع عن كونية الأنوار.

5. خطاب التسامح، نقدي بمسحة إنسانية تهذب في سبيل التعايش، وتنبع من فكر ناقد لذاته في الأساس، ويسير وفق ناظم أخلاقي، وهذا ما نجده لدى بوبر الوفي لفلسفته النقدية ولنظرته النسبية، وبتوظيفه الأخلاقي لتصوره حول المسؤلية الفكرية وربطها بالتسامح، إذ يؤكد أن تحققه مشروط بالنقد الذاتي، وتقبل النقد من الآخر، والحوار والنقاش المفضي إلى كشف الأخطاء على سبيل التعلم لا التجريح.

6. نقدية"تودوروف"تتجه نحو تعرية النظم السياسية الغربية من رداء الإنسانية الزائف، وتحليل واقع العنف والصدام الحضاري المصطنع، من خلال نقد الفكر، والعودة إلى استلهام روح التنوير الذي أسس لقيم كونية صالحة للإستدعاء، وهو حال خطاب التسامح الأنواري.

6. الخاتمة:

بالرغم من اختلاف منطلقات الأطاريح المتبنية لخطاب التسامح، إلاّ أنها تلتقي في سعيها للإقتراب من واقع مليء بالعدوان والتمركز وإقصاء الآخر. وتنشد ضرورة إستعادة إنسانية الإنسان، فكونية فكرة التسامح التي استحالت مبدأ ارتكاز في خطاب الأنوار. ومن خلال إستدعائه في الخطاب المعاصر، بإمكانها الإسهام ولو قليلا في حل أزمة العنف الرّاهن ورهان التعايش، وهذا ما يجعل كونية التنوير بالفعل جديرة بالإستعادة، تبعا لظروف تلقي الخطاب والتعاطي معه.

وأخيرا نتساءل: إذا كان الفكر المعاصر على اختلاف توجهاته، قد تغذى من روافد الأنوار، ولازال يغترف قيما ومبادئ أرستها الحداثة وعصر العقل في تمظهراته المادية والإنسانية، هل سيكون توظيف خطاب التسامح حالياً في السياق ذاته للتنوير؟ أم أن

ظروف العصر تقتضي تجديد الخطاب بما يتناسب ودلالاته؟ إذا ما أخذنا بالإعتبار ما طرأ على اللغة واللسانيات ذاتها من تطور في الحقول الدلالية ناهيك عن تحليل الخطاب، وعلوم اللغة؟ وهل يمكن للغة فولتير ولوك ودعاوى التسامح والإنسانية أن تخترق تعقيدات التحول الرقمي لدى الإنسان المعاصر؟

المصادروالمراجع:

1. تازفيتان تودوروف. (2007). روح الأنوار (الإصدار 1). (حافظ قويعة، المترجمون)تونس، تونس: دار محمد علي.
2. تازفيتان تودوروف. (2009). الخوف من البرابرة. (جان ماجد جبور، المترجمون) أبو ضبي: هيئة أبو ضبي للثقافة والتراث(كلمة).
3. تازفيتان تودوروف. (بلا تاريخ). تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية. (محمد الجرطي، المترجمون) قطر: وزارة الثقافة والفنون والتراث .
4. كارل بوبر.(1999). بحثا عن عالم أفضل. (أحمد مستجير، المترجمون) مصر: مكتبة الأسرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب.
5. برنار غروتويزن. (د ت). فلسفة الثورة الفرنسية. (عيسى عصفور، المترجمون) بيروت-باريس: منشورات عويدات.
6. جان توشار. (2010). تاريخ الأفكار السياسية من عصر النهضة إلى عصر الأنوار. (ناجي الدراوشة، المترجمون) دمشق، سوريا: دار التكوين.
7. جوزيف لوكلير. (2009). تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (الإصدار 01). (جورج سليمان، المترجمون) بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
8. جون لوك. (1997). رسالة في التسامح (الإصدار 01). (المجلس الأعلى للثقافة، المحرر، ومنى أبو سنة، المترجمون) مصر.
9. حنا أرندت. (2008). في الثورة (الإصدار 01). (عطا عبد الوهاب، المترجمون) بيروت- لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
10. علي عبود المحمداوي. (2016). الفلسفة والإرهاب. الجزائر- بيروت-الربا- بغداد: منشورات الإختلاف- منشورات ضفاف-دار الأمان-مكتبة عدنان.
11. ف فولغين. (2011). فلسفة الأنوار (الإصدار 02). (هنريت عبود، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الطليعة.
12. فولتير. (2009). رسالة في التسامح (الإصدار 01). (هنريت عبود، المترجمون) دمشق، سوريا: دار بترا للنشر والتوزيع.
13. ماجد الغرباوي. (2009). تحديات العنف. بيروت- لبنان: العرف للمطبوعات.
14. ويل ديورانت. (1982). قصة الفلسفة (الإصدار 04). (فتح الله محمد، المترجمون) بيروت، لبنان: مكتبة المعارف.
15. أبي الفضل ابن المنظور. (د ت). لسان العرب (المجلد مجلد). لبنان: دار صادر. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي. (2005). الموسوعة الإقتصادية والإجتماعية. قوسنا/ منوفية: كتب عربية.
16. اندريه لالاند. (2001). موسوعة لالاند الفلسفية (الإصدار 02، المجلد مجلد). (خليل أحمد خليل، المترجمون) بيروت، لبنان: منشورات عويدات.
17. جميل صليبا. (1982). المعجم الفلسفي ج2. لبنان: دار الكتاب اللبناني-مكتبة المدرسة.
18. عبد الوهاب الكيالي. (1990). موسوعة السياسة. بيروت، لبنان: المؤسة العربية للنشر.
19. قوعيش ,ج .(30 12 ,2014) .مشروع الكونية الشمولية راهنا-أو إشكال التواصل في عالم معولم .-التربية والإبستيمولوجيا(7)4 ,